٢

شباط

يقال شباط ، واشباط ، وسباط بالسين المهملة ، وهو شاباطو البابلي . ويأتي بالسريانية بمعنى الجلد والضرب بالسياط . وتقول العامة في لبنان : « شبط البيت » بمعنى كنسه ونظفه بالمساء ، و« المشباط » عندهم ضرب من المكانس ، يؤخذ من نبات معروف . « وشيطر » السريانية معناها الواسع ، الساط ، ولعل في ذلك اشارة الى ما ينهمل فيه من الامطار الغزيرة المدرارة . ويقال ان الشمس تدخل فيه برج الحوت . ويقابله بالافرنجية « فقريه » المأخوذة عن فبروارياس اللاتينية ومعناها « المطهر » نسبة الى ما كان يقيمه الرومانيون من ١٣ الى ٢١ منه من اعياد التطهير والتكفير عن الذنوب . وقد كانوا يصورونه بهيئة امرأة تلبس وشاحاً ازرق ، وقد حملت كنارًا بيدها ، والى جانبها آنية من خزف يتدفق منها الماء الغزير ، وعلى رجليها طير البحر المعروف بمالك الحزين . وبذلك كانوا يشيرون الى ما يتساقط فيه من الامطار الكثيرة التي تكاد تغرق الارض ببحر من المياه .

ولقد كان هذا الشهر في اصله ٢٩ يوماً في السنين العادية ، و٣٠ في السنة او الكبيسة . فلما اسمى الرومانيون شهر سكستيليس عندهم ، المقابل لآب من اشهرنا ، باسم اغسطوس قيصر تكريماً له اخذوا من شباط يوماً اضافوه الى

اغسطوس حتى لا يكون اقل اياماً من شهر يوليو المسمى باسم يوليوس قيصر ، احد سلفائه . وهكذا اصبح شباط على ما نراه في السنين العادية ٢٨ يوماً ، وفي الكبيسة او النسيئة ٢٩ .

* * *

والاساطير اللبنانية تصوّر شباط رجلاً من اهل الظرف يحب الدعابة ، على تقلّب في الرأي ، وخبث في الاخلاق ، وكره شديد للعجائز من النساء يدفعه الى السعي في سلبهنّ الحياة ؛ وقد توسعوا بتمديد كرهه وبغضه الى الشيوخ من الرجال ايضاً . ولهذا ترى الطاعنين في السن من الجنسين في بعض انحاء لبنان ، متى قرب شباط ، يرسمون صليباً بالكلس على ابواب بيوتهم دفعاً لاذاه وشره ، تشبّهاً بما فعله بنو اسرائيل في مصر لوقاية ابكارهم الذين استبقاهم ملك الموت حينما اجتاح ابكار المصريين . (خروج: ف ١٢)

ولعل الاسطورة المروية عما يتعمده شباط للشيوخ من الموت والهلاك ذات علاقة بمعتقد الفينيقيين الذين كانوا يؤلّهون قوى الطبيعة ويعتبرون الشتاء رمز الفناء والموت اعتبارهم للربيع رمز الحياة والانماش والانتاج ، ومعتقدهم ذاك كان يدفعهم الى اقامة حفلتين مختلفتين لالههم ادونيس ، مثال الشمس ، الاولى ابان الشتاء احتفالاً بموته المرموز به الى موت الطبيعة ، والثانية ابان الربيع احتفالاً بقيامته المرموز بها الى تجدد الطبيعة وعودها الى الحياة .

وهناك من ينسب الاسطورة المذكورة الى ايام « برد العجوز » المعروفة عند العرب ، وهي سبعة : اربعة منها في آخر شباط ، وثلاثة من اول اذار ، واسماؤها : صنّ ، وصنبر ، ووبر ، وآمر ، ومؤتمر ، ومعلّل ، ومطفئ الجمر . ومما قالوه فيها ان عجوزاً دهرية كاهنة من العرب كانت تخبر قومها ببرد يقع في آخر الشتاء يسوء في اثره في الماشية . فلم يكترثوا لقولها حتى فوجئوا به فانزل بهم الاضرار الفاحشة . وقيل ايضاً ان عجوزاً كان لها سبعة بنين سألتهم ان يزوجوها والحت فقالوا ابرزي للهواء سبع ليالٍ حتى نزوجك . ففعلت ، والزمان شتاء ، فماتت في السابعة .

وهذه الايام السبعة يدعوها اللبنانيون « بالمستقرضات » ويقولون ان شباط

استخدمها لاهلاك العجوز . ولعجوزهم اسطورة يتداولونها ملخصها : ان عجوزًا ارادت اتقاء شر شباط ، عدوّ العجائز اللدود ، فاعدّت عدتها من طعام ووقود وملابس . وعلم شباط بامرها فصمم على الفتك بها . ولما صار اليه الحكم في الطبيعة اخذ يرمي الارض بالبروق والرعود والصواعق والامطار . ثم ارسل عليها ريحًا شمالية باردة كستها بالثلوج والصقيع ، وكادت تقضي بالموت على كل ذي حياة . اما العجوز فقبعت في منزلها ، مع ابنة لها كانت تعينها على مكافحة شباط ، وأكبت على ايقاد النيران ، والتدثر بالملابس الثقيلة ، وتناول المآكل والمشارب المدفئة . حتى اذا صار شباط في عقده الثالث تنفست الصعداء وقالت متهكمة : « راح شباط وفي قفاه مخباط . »

وسمع شباط مقالها فازداد حنقًا ولم يرَ بدًا من اطالة ايامه ، فجاء الى رديفه اذار يستقرض منه ثلاثة ايام يستخدمها في القضاء على العجوز وقال له : « يا اذار ، يا ابن عمي ، ثلاثة ايام منك ، واربعة مني . لاوقد العجوز ردانها ، وابيعها فدانها . » والردان دولاب كانت العجائز اللبنانيات يستعملنه لتسليك الحرير ، والفدان الزوج من البقر .

وفي رواية ثانية انه قال : « لاوقد العجوز دولابها ، واضع رأسها بين ركابها . »

وفي رواية ثالثة : « لاهلك العجوز وبنتها ، واشوّفها عاقبة عنتها . »

فرنّ آذار له واقرضه ما طلب . ومضى شباط في انتقامه في الايام المستقرضة ، وقد فرغت عدة العجوز . وبعد ان اوقدت حتى دولابها ومغزلها للاستدفاء ، واصبحت لا تملك ما تدفع به اذى البرد ، تمكن شباط من اخماد انفاسها ، وتم له النصر عليها .

وعند قدماء الانكليز والاسكتلنديين حكاية تقليدية كهذه مآلها ان آذار يستعير ثلاثة ايام من نيسان ، وهذه الايام الثلاثة كانت عندهم ايام شؤم . فشيوع هذه الحكاية باركانها المتقاربة عند العرب والانكليز واللبنانيين يدل على ان لها اصلًا واحدًا يعود الى الخرافات الوثنية القديمة .

ويخاف اللبنانيون المستقرضات وامطارها وثلوجها ولا يأمنون على انفسهم من برد الشتاء الا بعد زوالها . ومن اقوالهم في ذلك : « في المستقرضات عند

جارك لا تبـات. » — « لا تقول خلصت الشتوية حتى تخلص المستقرضات المنكية » — « ما لك طرش يقوم الا بعد مستقرضات الروم.»

وينسبون الى شباط التقلب لتقلب الجو فيه بين صحو ومطر . ويتهكمون على المتقلب في مبادئه وافكاره ويتهمونه انه من مواليـد هـذا الشهر ومن اقوالهم في ذلك:« شباط ما على كلامه رباط.» - « امش على غيم كانون ولا تمش على غيم شباط .»

وشباط عندهم اعور منحوس. فاذا اكفهرّ الجوّ فيـه وامطر قالوا:« غمض شباط عينه». وان صفا وصحا قالوا :« فتح شباط عينه .»

وينسبون الى شباط النقص ويشبهون به كل ذي نقيصة ويقولون في ذلك: « فلان مثل شباط بيعير وبيستعير وبيظل ناقص »

ويصفونه ايضاً بالغدر :« راح شباط الغدار واجا ادار الهدّار .»

وشمس شباط وماؤه عندهم مضرّان. فالشمس تمرض كل من تعرض لها ، لذلك يتقونها شديد الاتقاء. ويوصون بحاذرتها .وما. المطر فيه موذٍ فلا يستحمون به ، ولا يدعونه يسيل الى آبارهم لئلا تأسن وتتولد فيها الديدان والهوامّ . ومن اقوالهم في ذلك:« شباط غيمه وهواه خير من شمسه وشتاه ،اي مطره «وشمس شباط تخبط الراس بالمخباط » ، وقولهم بلسان العجوز:« شمس شبـاط لكنتي (لانها تكرهها وتريد لها الضرر) وشمس ادار لبنتي (لانها تودّ لها ما هو اقل ضرراً) وشمس نيسان لي ولشيتي (لانها تريد لنفسها النافع المفيد)

وقد مهروا بمعرفة تأثير الشمس في الجسوم على اختلاف الفصول فقـالوا في ذلك:« شمس الربيع بتسرّ (من السرور) ، وشمس الصيف بتحرّ (من الحرارة) ، وشمس الخريف بتهرّ (اي تسقط الورق) وشمس الشتاء بتضرّ (من الضرر) .»

وبرد شباط يضعف الاجسام ويفقدها النضارة والصحة. ويقولون في ذلك ان آذار سأل شباط وهو راحل : « كيف فارقت الناس يا اخي شباط ؟ » فاجابه: « تركتهم صفر مبعجرين (متورمين) على المواقد قابزين (جاثمين).»

واذا مضى شبـاط وتصلبت الخضراوات الشتوية كالفجل والخس واللفت وما شاكل قالوا :« داس او غاط عليها شباط »

وتراهم رغم مطاعنهم بشباط واتهامهم اياه مختلف التهمات ، يطفون عليه حيناً ويقولون عنه انه «ابن حلال» اي طيب القلب . ومن اقوالهم في هذا المعنى: «شباط لو شبط ولو لبط ريحة الصيف فيه .» وذلك لقربه من فصل الربيع . وينسبون الى برده منع الجراد والجدب : «برد شباط يمنع الجراد والقحاط» اي القحط او المحل ، لانه يميت بيوض الحشرات التي تفتك بالمزروعات

وعندهم ان شباط على شدة برده تدبّ فيه السخونة في الطبيعة بجمار غير منظورة تقع من السماء ، وموعد وقوعها ٧ و ١٤ و ٢١ منه ، ويزعمون ان الاولى تسخن التراب ، والثانية الماء ، والثالثة الهواء . ومن ثم يصير الربيع على الابواب . واعتادوا ان لا يأكلوا «اليقسما» ، وهو مزيج الدبس والثلج ، الا بعد الجمرة الثالثة حيث لا يبقى خوف من التضرر بالبرد ويقولون في ذلك : «اليقسما في اول جمرة سم ، وفي ثاني جمرة دم ، وفي ثالث جمرة كل واصطم .» اي كل واسكت .

ويقول الزراع منهم ومن يهمهم مراقبة الجوّ ان الايام الثلاثة التي تقع فيها الجمار الثلاث تكون متشابهة طقساً ، فاذا كان الجو صاحياً دافئاً جميلاً او ممطراً بارداً مكفهراً او غير ذلك يوم وقوع الجمرة الاولى في ٧ منه ، انتظروا ان يكون كذلك في اليومين اللذين تسقط فيهما الجمرتان الثانيتان في ١٤ و ٢١ منه .

ويسمون عصارة الاشجار «الماوية» ، من الماء ، ويقولون في ذلك : «بعد تكامل الجمار تدبّ الماوية في العروق . وبيزهر الارز والبرقوق .» وهذا يصح على الساحل لا على الجبل .

وفي شباط تلد المعزى صغارها . فاذا تأخرت الى اذار كان ما تلده ضعيفاً مهزولاً . ويقولون في ذلك : «لا تربي الا جدي شباط» . ويتشاءمون من السنة الكبيسة التي يكون شباط فيها ٢٩ يوماً ، ويزعمون انها تميت الماشية ، ولاسيما المعاشير والمواليد ، ومن قولهم في ذلك : «في سنة الكبيس ، خليك على طروشك حريص .»